المرأة في مقدمات شعر الفرزدق
قراءة في قصيدة المديح

د . تغريد عدنان محمود الربيعي
كلية التربية – ابن الهيثم، جامعة بغداد، العراق.
(تاريخ القبول بالنشر: 8 أيلول 2013)

ملخص البحث

الفرزدق ظاهرة متفردة بالشعر العربي قلما نجد له نظيرا، شخصية معتدة بنفسها يلفها العنفوان والشموخ والإباء والعزة. نشأ حياة عزيزة كريمة، ينتمي الى اسرة عريقة في النسب والأصالة، وهذا له اثر بارز في بناء شخصيته واتجاه الفكري في شعره عامة، أي ان الانتماء القبلي للشاعر كان يؤدي دوراً أساسياً في توجيه مضمون اشعاره ولا سيما المديح.

وحظيت المرأة بمكانة متميزة عند الفرزدق فقد وظفها في ابداعاته الشعرية بوصفها صورة جميلة زين بها شعره، تجسد في حديث مستقل وأحيانا جزءا من قصيدة، لذا سيكون بحثنا قراءة في مقدمات قصيدة المديح، القصيدة التي حاول الفرزدق أن يلتزم في بعض منها الروح العربية الأصيلة متمثلة في هذا النمط التقليدي، هذه المقدمات على قصرها – في الأغلب – وعلى تنوعاتها بين النسيب، والأطلال، والشيب والشباب، ووصف الطيف اتخذت من المرأة عنوانا وسببا لها، وبهذا فقد أبدع الفرزدق في تجسيد الفاعلية النفسية للمقدمات.

ومن خلال هذه المقدمات نستطيع الوقوف على العواطف الكامنة في نفس الفرزدق وملاحظة تجلياته في رسم صورة للمراة رمزا لتغني آماله وآلامه ويضع فيها كل ما يحس به ويجيش في صدره بوصفها متخيل شعري لانها تعطي القدرة للشعر كي تبعث في النفس الراحة من عناء الحياة المادية.

اذن السؤال الذي يطرح نفسه في بحثنا هذا ..

لماذا كان للمراة حضور في قصيدة المديح ؟

هل هذا الغزل مقصودا لذاته في التغني بجمال المرأة أم وسيلة فنية عبّر من خلالها عن واقع حياته ؟

هل كانت المقدمات انعكاسا لشخصية الفرزدق ومتنفسا له أمام الآخر بوصفه جزءا ذاتيا ؟

هل هناك اسباب اجتماعية أو سياسية لهذه المقدمات ؟

هذا مانحاول الكشف عنه في بحثنا .. فالانسان بطبيعته مفتون بالجمال ، ورؤية الفرزدق للمرأة على مستوى التصوير الفني والروحي تنزع نحو اسباب الجمال فهو لايرى إلا ببصيرة الشاعر ، ولعل مرد ذلك الى انه شاعر يحمل فكرا معبرا ، والى مصدر الجمال نفسه – المرأة – التي قادت الشاعر الى مواطن الابداع . كل ذلك اثره في نفسية الفرزدق وحرصه على اقامة التقابل بين الماضي والحاضر من خلال صورة المرأة .

المرأة والشعر

كانت المرأة ولما تزل شغل الشعراء في كل زمان ومكان، لانها الوجه الآخر للحياة ، بوصفها مصدر الخصب والنماء والجمال، ومن جانب آخر مصدر للحزن والعذاب والألم، وإذا كان الإنسان لاغنى له عن الحياة، فالحياة لاغنى لها عن المرأة.

يقدم الفرزدق المرأة في صورة فنية قادرة على التأثير، وهذه ليست ظاهرة فنية فردية وخصوصية له، انما جماعية اجتماعية وجد الشاعر نفسه فيها – بوصفها جزءا ذاتيا – فهي رمز للجمال الذي يحرك في نفسه ميلا الى الجمال المطلق وهو حب الحياة. فالمرأة عنده مقدمة رائعة يحقق منها غايات ومنافع خاصة، وستارا فنيا للتعبير عن همومه وحقيقة مشاعره.

وسواء أ ذكر المرأة في مقدمة قصائده كانت تعبيرا عن معناة حقيقية [1]، أم مجرد رموز يوظفها الشاعر للتعبير عن الحالة النفسية التي انتابته لحظة الحدث [2]، فأنها تبقى في كل الأحوال بمثابة الباب الذي يدخل منه الشاعر الى موضوعه.

كما ان ظهور المرأة بصورها المتعددة كانت محورا مهما من محاور القصيدة العربية وظفها الفرزدق توظيفا فنيا بوصفها جزءا مكملا في عملية البناء الشعري الشكلي والموضوعي، "وربما كان وراء هذا كله امتلاك المرأة لقدرات التشكل بصور متعددة تفتح للشاعر آفاقا متغيرة ومواضيع لاتنتهي " [3]

وتغدو المرأة رمزاً يحتضن همومه وتتسع لاحزانه يطوعها الشاعر لاستيعاب معاناته في شتى شؤون الحياة .

المقدمات الشعرية عند الفرزدق

يتميز شعر العصر الأموي بنضجه الفني الذي توافر له مايؤدي تطوره من حيث الشكل والمضمون، فقد كان للفرزدق خطه المتميز في بناء مقدماته الشعرية. ومن خلال استقراء ديوانه لوحظ ان للمديح صوتا فاعلا في تلك الحقبة فضلا عن سائر أغراضه الشعرية، فهو اكثر الشعراء مديحا في العصر الاموي، بل اكثر شعراء العرب [4]، هذه القصيدة التي لما تزل حاضرة في كل مكان وزمان.

ان جلّ دراستنا في المقدمات الشعرية هي الّا نقدم مطلعا لقصيدة يُنظر اليها نظرة سطحية فحسب انما نتعامل مع مدلولاتها الرمزية وعلاقتها بالاغراض الشعرية لاسيما قصيدة المديح.

وقد أرتاريت ان ادرس أغلب مقدماته الشعرية ولاسيما قصيدة المديح، القصيدة التي حاول الفرزدق ان يسير فيها – نوعا ما – على النهج الفني، متمثلة في المقدمة والرحلة والغرض. فكل عنصر منها له وظيفته التي تؤدي الى ابرازها بالمظهر والشكل اللذين يخدمان موضوع القصيدة. فمن الواضح ان الشاعر في بناء القصيدة العربية القديمة يعمد احيانا الى التدرج في موضوعاتها، وهذا نمط تقليدي التزم فيه معظم الشعراء وهم في التزامهم هذا يمثلون الروح العربية الاصيلة.

ارتبطت بعض الفنون الشعرية بمقدمات خاصة، يُعتقد انها موائمة لموضوع القصيدة، كما راوا ان الغزل من أقرب المطالع مناسبة له [5]. هذا التمهيد احيانا يكون مقصودا من الشاعر يتخذه مؤثرا نفسيا في المتلقي من جهة، ووجهة فنية يخفي وراءها احاسيس ومكنونات نفسية يعكس من خلالها تجربة شعورية من جهة أخرى .

كما ان معيار الحكم النقدي القديم على جودة الشاعر ارتبط بعناصر جزئية تتمثل في اغزل بيت او ابلغ تشبيه وغيرها من الاحكام، فالنقاد ينظرون الى القصيدة على انها موجهة الى آخر يجب ان يطابق الكلام مقتضى الحال، ومن ثم خضع الشعراء الى سنن وتقاليد لايحق لهم الخروج عليها، لكن لو انعمنا النظر في الشعر نفسه ولاسيما المقدمات نجد فيها صوت الشاعر اولا ومن ثم صورة للمتلقي ثانيا فهم كانوا غالبا " ما يربطون الشعر بالمخاطب ونفسيته وما يناسبه وما يرضيه، وليس بمنشئ هذا الشعر وهذه طريقتهم الواضحة في نقد شعر المدح بالذات، حينما يتجاهلون نفسية الشاعر وشاعره في هذا الشعر " [6].

اذن وجود المقدمة في بعض قصائد الفرزدق غايتها العامة – الاساسية – ارضاء للمتلقي بهذه الوسيلة التي تستعطف وترقق القلب، فضلا عن انه عرف اجتماعي وخضوع للتقاليد الشائعة. اما ابعادها من التجربة النفسية فقد اودع الفرزدق تفاصيل وثيقة الصلة بنفسه وبمحور القصيدة الموضوعي.

رسم ابن قتيبة صورة للنهج المألوف الذي كانت تسلكه الشعراء في بناء القصيدة، والملاحظ ان المدح هو الذي يحتاج الى هذا التدرج في العناصر [7] في الاغلب، إذ له ابعاد وغايات. إن حقيقة المقدمات الشعرية تخدم الشاعر من ناحيتين، الأولى شكلية (تقديسية) بوصفها نظاما فنيا سار عليه أغلب الشعراء، والأخرى مضمونية (نفسية) يرمي الشاعر من ورائها جذب اهتمام السامعين، فضلا عن انها تخدم قضية الشاعر نفسه في التعبير عن معاناته النفسية ؛ لذا نرى ان المقدمات في شعر الفرزدق تكاد لاتعدو كونها متنفساً رمزياً.

وهكذا استعار الشعراء الانموذج القديم وافتتحوا قصائدهم بصور شتى من المقدمات فتغزلوا، ووصفوا الاطلال، ونعتوا الطيف، وتألموا من الشيب واقبلوا على الحياة اقبالا واسعا.

هذا التعدد والتنوع في المقدمات نجد صداه عند الفرزدق، لكنه تعدد محدود فهو في كثير من الأحيان بل غالبا يتجاوز المقدمة الى الغرض مباشرة، "ويمكن ان نفهم ان هذه القدرة على مخالفة التقاليد تمثل مبالغة في الثقة بالنفس وبالشاعرية"[٨]، فيدخل الى موضوعه دون مقدمات ويشهد له ديوانه بكثرتها وقوة سبكها. اما قصائده ذو المدخل غير المباشر فكان يقتصد في حديثه عنها اقتصادا واضحا، فاذا هو حديث قصير يلم فيه الماما سريعا يذكر بعض تفاصيلها ومقومات بنائها، ثم يقفز عنها مسرعا قبل ان يوفيها حقها [٩]، واحيانا نادرة تتسع بعض مقدماته فيفصل الحديث والتدقيق والوصف والتصوير.

نتناول في بحثنا هذا رؤية الشاعر وموقفه من الحياة من خلال مقدماته الشعرية ومن زوايا عديدة تتركز في " شخصية الشاعر ونفسيته وتفكيره ولذته في الابداع ..... لان النفس تصنع الأدب " [١٠].

المقدمة الغزلية

المرأة رمز للجمال الذي يحرك في نفس الشاعر حب الحياة؛ لذا تعد المقدمة الغزلية سيدة المقدمات في مدائح الفرزدق عنى بها بتصوير محاسن الانثى وملامحها الخارجية، وهي في الواقع تعبير عن الدلالات النفسية للشاعر التي تصور اعماق النفس وما يدور فيها من احاسيس وانفعالات جياشة، فالمرأة مرآة تعكس واقع الحياة.

فهو على اهتمامه بالغزل الا انه لم يكثر منه اكثار غيره من الشعراء، ويطيل الوقوف عليه، إذ كان يؤثر ان يمضي الى غرضه، فطباع الفرزدق من غلظة وخشونة لم تسعفه في التأني يمر بها عجلا ولا يبث وجدا فاكثر مطالعه الغزلية بيتا أو بيتين واحيانا يمتد به القول حتى سبعة أبيات [١١].

وتتعدد صور المرأة عند الفرزدق منها صورة المرأة الجميلة الزاهية المشرقة التي تعكس طباعه الايجابية نحو الحياة، فيكتفي بنعت بعض المحاسن التي اعتاد الشعراء على وصفها، ولايخوض في اللذة المحرمة،

يقول :

يَقولُ الاطباءُ المُداوونَ إذ خَشوا عَوارِضَ من أدواء داءٍ يُصيبُها
وظَبيَةُ دائي والشّـــــفاءُ لقاؤهَــا وَهل أنا مَدعـُـوٌّ لنفسي طَبيبُهــا [١٢]

ظبية هي المرأة التي تزوجها بعد النوار، فالفرزدق حين يريد التعبير عن حبه للحياة يعكس صورة ايجابية للمرأة، وهي في الوقت نفسه تعكس الحالة النفسية فيبوح بمعاناة حبه، فهو السائل (يقول الاطباء) والمجيب (الشفاء لقاؤها).

ارتبطت المرأة بالمطالع الغزلية التي لها صلة بالواقع الاجتماعي، مما جعل شعر الغزل يرتبط بواقع احداث عصر الشاعر، فهو يصف مرحلة من مراحل حياته فينقل لنا صورة من صور الغزل الحجازي البدوي الآسر الرقيق، فيستغرق

لقد كُـنتُ أحياناً صبوراً فهَاجني عَواعِمُ لم يَدرينَ ما أهلُ صِرْمَـةٍ
وَلم يَدّلِـــجْ ليلاً بِهــنّ مُعـــــزّبٌ شَقيٌّ ولم يَسمعنَ صوتَ العَوازِفِ [١٣]

الفرزدق في الوصف والتصوير فيحاول ان يكشف في المقدمة عن ظاهرة الاستبطان ومدلولاتها بالاشارة او الترميز، فهو يرسم صورة للحياة من خلال المرأة فهما علاقة متلازمة — جميلة — في نفس أي انسان، فالمرأة تعني ضمان واستمرار الحياة على وجه الارض فيتحدث عمن يُعجب من النساء، ويصدر عن ذوق حضري يخالف الذوق البدوي، فيصفهن وصفا معنويا يعكس مرحلة من مراحل حياته وتأثره بالبيئة الحجازية، يقول :

مَشـاعِفُ بالدّيرَينِ رُجْحُ الرّوادِفِ عِجافٍ ولم يَتبَعــــنَ أحمـــالَ قائِفِ
شَقيٌّ ولم يَسمعنَ صوتَ العَوازِفِ

هذه المقدمة تعكس تجربة شعورية للفرزدق ومرحلة من مراحل حياته فهي تنبض بالحنين منذ مطلعها، والابتداء بقوله: (صبورا فهاجني) يقذف في ذهن المتلقي شروعا في عمل ما مما يبعث على التشويق والتعاطف معه، فهو منجذب الى النساء الحضريات ويتهكم بصورة غير مباشرة بالنساء البدويات، في أثناء المقارنة بين البيئة البدوية و الحضرية، فقد وجد في المراة سبيلا لوجه المقارنة، فالشاعر خلال تصويره عمد الى الالفاظ المعبرة عن الحضر والبادية، ويقول :

إذا رُحْنَ في الديباجِ والخـزُّ فَـوقهُ ... معاً مثـلَ أبكارِ الهِجـانِ العَلائِـفِ
الى مَلْعَـبٍ خالٍ لهُـنّ بَلغْنَـهُ ... بدَلٍّ الغَـواني المُكـرَماتِ العَلائِـفِ
يُنازِعْنَ مَـكنونَ الحَـديثِ كأنـما ... يُنازِعْـنَ مِسـكاً بالأكُـفّ الدّوائِـفِ
وقُـلنَ لليلى : حَـدّثينا فلم تكـدْ ... تقـولُ بأدنى صَـوتِها المُتَهانـفِ
روَاعِـفُ بالجادِيّ كُـلَّ عَشـِيّةٍ ... إذا سُـفنَه سَوْفَ الهِجانِ الرّواشِـفِ
بَناتُ نَعـيمٍ زَانَها العَيشُ والغِـنى ... يَمِلنَ إذا ماقُـمنَ مثـلَ الأحاقِـفِ ١٤

يحرص الفرزدق على اظهار المرأة الحجازية بهذه الصورة من الدعة والنعمة، وربما يعود الى رغبته في هذا النوع المترف من النساء لاسيما وهوعاش حياة تميل الى البداوة، فضلا عن انها تعكس حالة شعورية تبرز تعلقه وحبه للحياة بصورة عامة فتنعكس جمالية المقدمة على جمالية وصف الممدوح، فكلما كانت المقدمة تعبر عن خوالج نفسية وشعورية صادقة كان انعكاسا للحالة النفسية للشاعر تجاه ممدوحه.

إن رؤية الفرزدق للمرأة على مستوى التصوير الفني والروحي تنزع نحو السمو باسباب الجمال، التي تقود الشاعر الى عوالم فسيحة من الانطلاق نظرا لما تتوافر عليه من مواطن ابداع، فالصورة الشعرية تتحرك كعالم بصري وحسي متكامل له ابعاد زمانية ومكانية وسايكولوجية .

ويتضح ان الفرزدق اعتمد في تكوين صوره الغزلية على عناصر مستوحاة من الطبيعة صورة تعكس جمالية المرأة – محاسنها الخارجية – وصورة اخرى عن نفسية المراة، فحديثها خفيضا طيبا كالمسك. ولعنصر الحركة دوره في استحضار موقف المرأة ورقتها، فهي صورة نفسية بصرية فحركة بنات النعيم – دلالة على الغنى والجاه وتقلبها في النعيم وانها مرفهة – فيها خفة وميل مثل حركة الرمال وتناسقها.

هذا والملاحظ ان موضوع المرأة في هذه المقدمة المدحية انقسمت على قسمين، الأول يعمد الى المقارنة بين بيئتين فهو يجعل للمكان دوره في عملية التصوير، والآخر جمالية البيئة الحجازية ونسائها وتفضيله لها. فالمقدمة هنا لها ربط بموضوع القصيدة الاساسي هو المدح، حين عمد الى تفضيل ممدوحه على غيره من الناس وتعداد محاسنه وبطولاته وشجاعته لا سيما ما اشارليه بالترميز كما في قوله:

وَقد أبطَأ الأشياعُ حتى كأنما ... يُسَاقونَ سَوْقَ المُثقلاتِ الزّواحفِ ١٥

صورة الحجاز في مقدمته صورة عن نفسه بعد ان رحل مجبرا فارا من بطش الخليفة فإمن هناك واستقر حاله، فنعم هناك وينعم كل خائف في ظل ممدوحه، يقول :

وآمـنتهُ مِـما يَـخـافُ إذا أوَى ... إليك فأمسـى آمِناً غيرَ خائِـفِ ١٦

فالدلالات المعنوية بين الشاعر والممدوح أساس بناء المقدمة عند الفرزدق التي تعكس حالته النفسية وتجربته الشعورية، فوجه المقارنة التي اعتمدها الفرزدق في مقدمته هي واقع حال الفرزدق وتهكمه بالبيئة البدوية رمزا لحالته هناك حين رحل قسرا الى الحجاز فاراد ان يجازي اهل الحجاز فنقل لنا صورة منها بوساطة المرأة.

المرأة مغامرة في الحياة

المرأة عند الفرزدق صراع يدور في نفسه ويتمثل هذا الصراع في تعدد مواقفه وتلونها بلون الحياة وظروفها التي مرت عليه، موظفا الاحداث – الماضي والحاضر – ، والشخوص – المرأة والمخاطب – فيعدهما الركيزة الاساسية التي يبني عليهما مواقفه.

ان الحديث عن مغامرات الفرزدق الغزلية تحلو صورتها – الظاهرية – انه حديث ماجن خليع يخوض في اللذة المحرمة [١٧] يفيض بالشهوة العارمة " وحقا نجد هذه المقدمات تقترب من ذوق امرئ القيس والاعشى فتصور صاحبها فتى عابث يتقلب في اللذة الحرام " [١٨] باسلوب قصصي فظاهرة القص والحكاية ظاهرة اصيلة عند الفرزدق [١٩] فبعض صواحب الفرزدق نساء متزوجات، فهو لايتحدث عن المرأة وحدها انما يتحدث عن زوجها في بعض الأحيان، ويسوق هذه المغامرات في قالب قصصي يقربها من الواقع، وتعنى هذه المشاهد بالوصف والتصوير، يقول:

عَزفْتَ بأعشـــاشٍ وما كِدتَ تعزِفُ وأنكرتَ من حَـــدراءَ ما كنتَ تعـــرِفُ
وَجّ بكَ الهِجـــرانُ حتـــى كأنّـما تَرى الموتَ في البيتِ الذي كـنتَ تيلفُ
لَجاجَةُ صُـرمٍ ليـسَ بالوصـــل إنمـا أخو الوَصـــلِ من يَدنـــو ومن يَتلطّـفُ [٢٠]

من المقدمات التي ابدع فيها الفرزدق واطال الحديث وفصله هذه القصيدة التي تبدو انها موجهة الى ممدوح غائب لايصرح به ولا يمدحه انما يشرع في الفخر، فيسترسل في الغزل الذي يدور في ثلاثة محاور – صور – ، المحور الأول يعلن الفرزدق فى اول حديثه انه انصرف عن اللهو والتصابي وسكت عن محاسن المرأة والتفت الى السخط عليها ولعل مرد ذلك انه شعر قيل بعد ذهاب الشباب – اشارة الى كبر سنه – وانكر ما كان بينه وبين حدراء من مودة، ويتمادى في اظهار صده عنها، حتى يخيل اليه ان المنية تنتظره في البيت [٢١]. وهو بعد ازدرائه بحدراء ينتقل الى وصف محاسنها، يقول :

إذا انتبهتْ حَدراءُ من نومةِ الضّحى دَعتْ وعليـــها دِرْعُ خَزّ ومِطْـرَفُ
.....
إذا هـــنّ سَاقَطْنَ الحَديـــثَ كأنّـــه جَنى النّحـــلِ أو أبكارُ كَـرْمٍ يُقطّـفُ
يُحَـــدّثْنَ بعدَ اليأسِ من غَيرِ رِيـــبَةٍ أحاديثَ تَـشـفي المُدنَـفِينَ وَتشغَـــفُ [٢٢]

هذا الانتقال المفاجئ من الهجر والصدود عن المراة الى وصف نعيمها وترفها، انما يمثل واقع حياة الفرزدق مايحب ان تكون عليه المرأة فيرسم صورة للنساء الجميلات العفيفات اللواتي تحسن الحديث كانه جنى النحل، فهوشغوف بحديثهن يهوى سماعه ، وقادر على تذوق اطايبه [٢٣]. ولما أتم وصفه انعطف الى ذكر المرأة المولعة به، وهي محبوسة في قصرها، ولا يعرف كيف يصل اليها وعليها حراس يحرسونها، والكلاب الضارية التي لا ينجو منها احد، إذ مر بها، ثم يمضي يصور امله في الوصول اليها واللقاء بها، فيدعو على زوجها ان يصاب بمرض فيتظاهر بهيأة طبيب ليداوي عينه حتى يتمكن من رؤيتها عن قرب، يقول :

فكيفَ بمحبُـوسٍ دعانـــي وَدونـــَـه ... دُرُوبٌ وأبَـوابٌ وقَـصـرٌ مُشَـرَّفُ
وَصُـهْبٌ لِحاهُم راكِزُونَ رِماحَهـمْ ... لهم دَرَقٌ تحـــتَ العَوالي مُصفَّـفُ
وضَـــارِيةٌ ما مَرّ إلا اقـتَـسَـمْـــنهُ ... عَليهـنّ خَوَّاضٌ الى الطّـنءِ مِخشَفُ
دَعَوتَ الذي سَـوّى السّمـــواتِ أيْدُهُ ... ولله أدنـــى من وَرِيـــدي وألطَـــفُ
ليشْغَـلَ عـــني بَعلَـها بِزَمَـانـــَةٍ ... تُدلِّهـُـهُ عـــني وعنـــها فَنَسْعَـفُ [٢٤]

هذه الصور الثلاث المختلفة للمراة، لاتعني أنواعا او صور المراة في المجتمع، انما صورة نفسه — الشاعر — التي انطبعت في صورة المراة، فالحياة تحمل صورا عديدة يشغل الحس مكانا بارزا في بناء اجزائها، تجسدت نظرته في الاطار الخارجي، وفي الوقوف على نفسية المرأة، فقد استعان بالتشبيه في بيان مواطن الجمال للمرأة منتزعا هذه التشبيهات من عناصر البيئة العربية، فهي اولا تعكس جانبا من شخصيته وعلاقته مع ازواجه فلم يوفق مع احداهن، إذ تشكل حدراء مرحلة تالية في حياته الزوجية، حدراء اذن رمز فني يعكس من خلالها صورة الحياة المريرة فهو لم يعرف الاستقرار العاطفي مطلقا " ولم يجد في المرأة الا القلق المتواصل وعدم الاستقرار لذا ترك لنفسه العنان في اختراع القصص بعد ان تعذر عليه ايجادها على ارض الواقع " [٢٥]، ليتحول بعدها الى المحور الثاني من لوحته الفنية هذا الانتقال السريع دلالة على عدم الاستقرار والتناقض في حيات، فيرسم صورة الحياة الهادئة المستقرة التي انعكست في النساء الحضريات ليصف مرحلة ثانية من مراحل حياته متأثرا بالبيئة الحجازية آنذاك، أما المحور الثالث فهي صورة المرأة الممنعة المحجبة التي حاول جاهدا الظفر بها وهي الصورة الخيالية للمرأة التي تمنى ان يصل اليها، انما هي في الواقع صورة الحياة التي يتمنى ان يعيشها فهذه المخاطرة هي مخاطرة الحياة التي فرضت عليه الانتقال من مكان الى آخر للحصول على الاستقرار والهدوء النفسي.

اعتمد الفرزدق في هذه المقدمة الطويلة اسلوب القص والحكاية التي تتطلب سعة في الخيال واطالة في الحديث، لانه فصّل فيها مراحل حياته، حياة الخشونة والغلظة مع ازواجه، والشاعر خلال تصويره يعمد الى الالفاظ المعبرة ، إذ استعمل الفاظا قاسية مع زوجه مبتعدا عن الرقة والعذوبة في تعامله مع النساء، ليتحول بعدها الى مرحلة ثانية صورة المرأة الفاتنة العفيفة المترفة، فتحولت الفاظه الى اسلوب الراوي المتيم والمعجب بصورة الحياة الحجازية، اما مرحلته الأخيرة فتتجسد في اسلوب المغامرة والمخاطرة فاستعمل الفاظا تعكس ذلك الواقع التي هي انعكاس لاسلوب حياته للوصول الى غايته ومراده.

وفي موضع آخر يسرد لنا الفرزدق ان علاقته بالمرأة علاقة مغامرة في الحياة، فلا يظهر بمظهر العاشق المتيم الواله ، انما الرجل الذي يخوض تجارب خطرة عنيفة، هي في الواقع انعكاس لشخصيته القوية الصلبة المتمردة، فيروي لنا قصة من قصص غرامه ولهوه مع النساء، يقول :

وآلِفَـةٍ بَرْدَ الحِجَـالِ احتوَيتُهـــا ... وقَـد نامَ مَنْ يَخشَى عليها وأسْحَـرَا
تَـغَـلْغَـلَ وَقّـاعٌ إليهـــا وَأقبَـلَـتْ ... تَـجَـوسُ خُـدارِيّاً من الليلِ اخضَرا
لَـطيفٌ إذا ما انـسلّ أدرَكَ ما ابتغَى ... إذا هو للـطّـنءِ المَخـوفِ تَـقَـتَّـرا
يَزِيدُ على ما كُـــنتُ أوصَيتُهُ بِهِ ... وإن ناكَـرتُهُ الآنَ ثُـــمّتَ أنكَـــرَا [٢٦]

يصور لنا الفرزدق طريقته للوصول الى صاحبته – اللذة – وكيف ارسل لها رسوله اللبق الحذر لحفظ وصيته وعمله بها [٢٧]. ليتحول الكلام على لسان متكلم – آخر – يخبره بواقع الحال انه كبير السن واقرانه تركوا اللهو والصبا فاشارة (ابن الثمانين) ،هي نقطة تحول في حياة الفرزدق انتقال من الماضي الى الحاضر – اي صحوة النفس الى الواقع – ثم يعود الى الماضي ثانية فيواصل غرامه، يقول :

وقَـد كُنتُ لا لَـهواً تُريـدُ لِقاءَهُ فقد كـــنتُ إذ أمشِـــي إليك كأوجَرا
لِقـاؤكِ في حيثُ التقَـــينا وإنما أطَـــعتُ مَواثِـــيقَ الجَرِيّ المُكَـرَّرا [٢٨]

فالعودة الى الوراء هو الحنين الى ما يتمنى ان يكون، ويسترسل في وصف مغامراته وكيف انه وصل اليها وخرجت معه، ويشخص عنصر الزمان (الليل) ليجسد مشاعره فهو خائف من ان يراه احد وهذا تصوير نفسي لمشاعر الحذر والترقب. فقد أطاع رسوله (اشارة الى الذات الأخرى)التي تكن صدره ونفسه فيدور الحديث بين الذات والآخر، فهو حوار مع النفس التي تتعشق الى الماضي – أيام زهوه وعزه – وما مرّ عليه من مشاق واهوال ومطاردة انعكست هذه في صورة المراة، فالفرزدق لايخوض في التصوير الحسي او الجسدي – المادي – واقعا، انما يصور مغامرة من مغامرات حياته في التنقل من مكان الى آخر بحثا عن الامن والاستقرار. فينصرف من الغزل الى الفخر بنفسه وبقومه [٢٩]، قبل الخوض في المديح. يقول حسين عطوان: " لذلك نراه حين تستعصي عليه العبارة وتغلق في وجهه ابواب الغزل يلج ابواب الفخر بقومه ليعوض النقص ويملأ الفراغ الذي نشا عن قصر باعه في الغزل " [٣٠]، ان تحول الشاعر من الغزل الى الفخر قبل المدح دلالة على عنفوانه وتعاليه على الآخر وليس هذا الا دليل على تمكن الفخر من نفسه، فقد تفوق فيه وابدع وهذا الانقطاع ليس تعويضا عن النقص، انما انصرافه عن اللهو الى شيء ذي دلالة حقيقية في نفسه وهو الفخر أمام الممدوح.

رَأيتُ نَـوارَ قـد جَعلَـتْ تَـجَنّـى وتُكْـثِرُ لي المَلامَـةَ والعِتابَا
وأحدَثُ عَهْـــدِ وُدّكَ بالغَـــواني إذا ما رَأسُ طالِبِهِـنّ شَـــابا [٣٣]

يرسم الفرزدق صورة للنوار المرأة التي تكثر من لومه وعتابه فنوار انعكاس لشعوره فإذا اراد ان يعطي وصفا جميلا او مدحا انيقا كانت نوار سببا لذلك الجمال والحب، اما اذا كانت انعكاسا لموقف مغاير، صوّرها بالشخص الآخر او الوجه الآخر لتجربته الشعورية وما يجول في صدره من هموم واحزان فالاشارة الى النوارهي الذات الاخرى للفرزدق او بمعنى آخر الصورة التي تعكس مشاعره الحقيقة. فظاهر هذه الابيات تعبر عن غلظة الحياة وقسوتها، مذعن وخاضع لها. و(نوار) اشارة

الشيب والشباب

ان ذكر الشيب والشباب كان له صدى عند الفرزق، فهو من الشعراء المعمرين الذين تفوقوا في هذا الفن، إذ جعله افتتاحية لبعض قصائده، اتخذ منه وسيلة للتعبير عن حالته الحزينة ، وما يداخلها من المشاعر المختلفة [٣١]. فكثير من " الشعراء العرب توجعوا من الشيب بل هم لم يتوجعوا من امر كما توجعوا من الشيب وصروف الزمان، وما أكثر ما اقترن هذا التوجع بذكر النساء! " [٣٢] الصراع هنا يدور بين الواقع الأليم والماضي البهيج ، شكلت المرأة ملمحا بارزا وسببا مؤثرا في حالته، بل كانت الدافع الحقيقي للتعبير عن تجربته الشعورية وما رمى به الزمان من الحسرة والقلق والحزن، فالفرزدق يعيش صراعا نفسيا بين الخضوع والاستسلام للواقع – الشيب وزهوة الماضي ونظارته – الشباب – ، يقول :

الى الماضي ايام صباه ولهوه . الفرزدق يبحث عن الخلود في مقدمته هذه، فهو محب للحياة مغامر فيها مقبل على ترفها فهو يصور الهم – الشيب – الذي داهمه في اواخر عمره، ليت لو زال الى يوم المبعث وهو تمني غير محقق هذه الاشارة تبين اولا الاثر الديني عند الشاعر، ومن ثم دلالة على حبه وتعلقه بالحياة وانغماسه في مباهجها وملذاتها فيبدأ يسترسل الحديث عن ايام صبوته وحنينه الى شبابه وتمسكه به، وتأسفه عليه، يقول :

فَليتَ الشّيبّ يومَ غدا علَينا إلى يومِ القيامَةِ كانَ غَابا
فكَان أحَبَّ مُنتَظرٍ إلينا وأبغَضَ غَائِبٍ يُرجى إيَابا
فلم أرَ كالشّبابِ مَتاعَ دُنيَا ولم أرَ مِثلَ كِسْوَتِهِ ثِيَابا [٣٤]

يوظف الفرزدق اسلوب المقابلة في هذا المقام فيعلو صوته معلنا حبه للشباب وبغضه للشيب وزوال متاع الدنيا. حبه للحياة وبغضه لأي شيء هل الشيب حقا ؟ أم شيء آخر اراد التعبير عنه، الآ ترى ان استسلام الانسان – الشاعر – للشيب هو خضوع للواقع واي واقع ؟ هو واقع الحجاج الذي مدحه في هذه القصيدة، فحديثه مع النوار هي الذات الأخرى عنده في كثرة عتابها ولومها له .فلو نظرنا الى النص لتسألنا مالسبب في تجنيه وسخطه على الشيب، ثم يقطع كلامه للمفاخرة بنفسه وبقومه امام النوار، أليست النوار من قومه وقبيلته ؟ وهل يحتاج الشاعر لتأكيد حقيقة معروفة للجميع. اذن النوار وسيلة فنية يحتال بها الشاعر على الآخرين – الممدوح – المخاطب الموجه له الكلام.

يريد الشاعر ان يقول: ان استسلام الانسان للشيب قدر مقدور لهذا الواقع الزمني وهو في الوقت نفسه خضوع وانقياد للحجاج خوفا من بطشه:

وَلو أني بِصِينِ اسْتَانَ أهلي وَقد أغلَقْتُ من هَجْرَينِ بابا
عَليّ رأيتُ يابنَ أبي عَقيلٍ ورَائي مِنكَ أظفاراً ونَابا
فَعفوُكَ يابنَ يوسُفَ خيرُ عفوٍ وَأنتَ أشَدُّ مُنْتَقِمٍ عِقابَا
رأيتُ الناسَ قد خَافُوكَ حتى خَشُوا بيديكَ أو فرَقوا الحِسَابَا [٣٥]

ان انتقال الشاعر بعد هذه المقدمة الى الفخر بقومه، هي اشارة الى منزلته ومكانته والتعالي بها امام الحجاج، وان نفسه متشوقة ومتعطشة الى الشباب واي شباب ؟ هي ايام شموخه وعزته مع قومه.

فالشباب قومه وعشيرته (الحياة)

الشيب الواقع الأليم (الخوف والموت)

إن مقدمة الشيب والشباب مقدمة غنية بالتفاصيل والجزئيات والموضوعات الانسانية يستطيع الشاعر فيها ان يتحدث عن مرحلة الشيخوخة ووداع الشباب وانصراف النساء عنه ، فيمزج دموعه بالحسرة والألم، فقد كانت عيونه التي يصيد بها جميلات النساء غدت متنفسا روحيا وحزنا على ما فاته [٣٦].

هذه التقلبات في حياة الفرزدق ولدت معان جديدة يمد بها لوحته الغزلية فهذه المقدمة تشكل حديث النفس بصوت خافت وهادئ، وان مصير الانسان هو الكبر والشيب وحديث بصوت عال يرفض من خلالها واقع الحياة لانها حقبة استسلام وخضوع وانقياد، يقول :

إنْ يُـظعِنِ الشّيبُ الشّـبابَ فقد تُـرى لهُ لِـمّةٌ لم يُرْمَ عـنها غُرابُـها
لَئن أصبحتْ نفسي تُـجيبُ لطال ما أقرّتْ بعيني أن يُغِـيمُ سَحابُـها
وأصبحتُ مثلَ النّسـرِ اصبحَ واقِـعاً وأفناه من كَـــرّ اللّيالي ذهابُـها [٣٧]

يستعير الفرزدق بعض الرموز التعبيرية في مقدمته هذه استعار الغراب لخصل الشعر الاسود، والنسر الذي عجز عن الطيران والحركة لمرحلة الشيخوخة. ما الذي دفع الفرزدق ان يرمز للحياة (بالغراب — رمز الشؤم –)، وان يرمز للفناء (بالنسر — رمز للقوة –) أ شدة السواد ؟ أم الخيال الواقعي؟ أم الواقع الخيالي فصفة النسر التحليق بعيدا ولمسافات طويلة أ ليس هذا تعبيرا عن تنقله بين العراق والحجاز والشام، فهو الان ضعيف القوى، لايقدرعلى التنقل لكبر سنه. فالصورة تجسد حياة الفرزدق كيف كانت، وكيف اصبحت ؟ اذن هي حسرة وألم وحنين الى الماضي.

مقدمة الطيف

طيف الخيال من الموضوعات المحببة الى نفس الشعراء، اولعوا به وانجذبوا نحوه، وهي ظاهرة بارزة وابداعية في بعض مقدمات شعر الفرزدق، فالمرأة تعني الحياة وهو في حديثه وشوقه إليها حديث النفس عن حب الدنيا واقباله على ملذاتها، فقد عاش حياة مترفة منعمة فهو دائم الحنين الى ذكريات — الماضي– خلال رحلته في المفاوز والقفار، فخيال المرأة — صاحبة أو زوجة — لايفارقه يزوره بالرغم من بعد المسافات الطويلة التي تفصله عنها، وهو في حديثه يوظف العناصر البدوية ويحافظ على تقاليدها فـ " دائما لا تزورهم اطيافهن إلا وهم في الصحارى الموحشة والقفار المخوفة " [٣٨]، " وفي آخر الليل قبل طلوع الفجر " [٣٩] هذه العناصر هي استحضار الماضي في صورة المرأة التي يطرق خيالها في منامه، فقد تفوق الفرزدق في هذا الفن وجعله وسيلة للتعبير عن تعلقه وحبه للحياة، يقول :

طَـرقَـتْ نوارُ ودُونَ مَطرَقِـهَا جَـذْبُ البُرَى لِنَـواحِلٍ صُـعرِ
ورَوَاحُ مُعْـصِفَـةٍ وَغَـدْوَتُـها شَـــهراً تُوَاصِلهُ الى شَـــهرِ
أدنَى مَنَـــازِلِهَا لِطالِـبِـــهَا خِـمْـسُ المُؤوِّبِ للقَطا الكُـدْرِ
وإذا أنَـــامُ ألَـمّ طائِـفُـهَـــا حتى ينبـــه اعـــين الســـفر [٤٠]

إن لعنصر الطيف دوره لاسيما في قصيدة المديح احتلت المرأة موقعا مهما فيه، إذ كانت المحور الاساسي في رحلة الشاعر الى ممدوحه، نجد في مقدمته ان الشاعر قصد في هذا الشعر خيال المعشوق وجعل خيالها بدلا منها، لانها في مكان بعيد عنه فهو لا يستطيع ان ينسى خيالها الذي يتصور في النفس . يرسم الفرزدق صورة جميلة للنوار فنفسه منجذبة لها ومائلة مثل انجذاب خدود الناقة بتأثير الحلقة في انفها، فهذه الصورة البديعية وظفها الفرزدق وعبّر بها عن ميل نفسه ليس الى النوار كما يبدو، انما الى ممدوحه الذي يحث خطاه للوصول اليه، يقول :

إني يُـهَيّـجُـــني إذا ذُكِـــرَتْ ريـحُ الجَـــنوبِ لها على الذِكـــرِ
وكأنّـما التَبَسَـــتْ بِأرحُـلِنا بعـــدَ المَـــنامِ ذكِـــيةُ التَّجْـــرِ [٤١]

ريح الجنوب أ تذكره بالنوار ؟ أم هذه الرحلة في الصحارى الموحشة الى ممدوح، فالرياح تحمل له ريح معشوقه المتشوق الى رؤيته، فطيب العطور هي رائحة ممدوحه الذكية. النوار هنا هي صورة للممدوح فرسم لها رسما جميلا وانما جاء بها ايماءً ورمزاً .

وله في مقدمة اخرى يرسم الطيف قدر المستطاع باجمل صورة كلوحة رسم يعرضها على المتلقي، فالطيف يزوره في آخر الليل بعد هدوء الناس وسكونهم، لكنه ليل قصير يزول عند ظهور تباشير الصباح : يقول

إذا عَـــرضَ المَنامُ لنا بسلمَـــى ... فـقُـــلْ في ليلِ طارقةٍ قَـصيرِ
أتَتْـنا بعـــدما وقَـعَ المَـــطايا ... بِنا في ظِلّ أبيَـــضَ مُستطـيرِ
فَـقُـلتُ لها كَـــذا الأحـــلامُ أم لا ... أتَتْنـــي الرّائِعاتُ مِنَ الدّهـــورِ
فلَمّا للصّـــــلاةِ دَعا المُـــنادي ... نهَضْـــتُ وكنتُ منها في غُرورِ [٤٢]

جاءه طيف سلمى آخر الليل قبل الصباح، فالزمان هنا اشارة او دلالة الى أن الطيف لايدوم كما في اتصاله – بالاخرين – فهو قصير لايدوم كثيرا، وهذا القصر جاء بقرينة (الصلاة) ايحاء الى يوم جديد آخر لكن هذا اليوم مع من؟ متصل ومستمر مع قومه؛ لذا قدم فخره بقومه ذي المعاني الاسلامية على الممدوح والاشارة ابلغ من التصريح، يقول :

نمَانـي كُلُّ أصـيَـــدَ دَارِمِـــيٍّ ... على الاقـــــوَامِ أبّاءٍ فَـخـــــورِ
اذا اجتمَـــعَتْ عَصَايبُ كُلّ حـــيٍّ ... مِنَ الآفـــاقِ مُختَلـفـــي النُّجـورِ [٤٣]

إن مقدمة الطيف عند الفرزدق تعني بالتصوير النفسي عناية رائعة، يبث فيها مشاعره على نحو مانرى في قوله :

ألَمّ خَـيالٌ مـن عُليـــّةَ بعـدما ... رَجا لي أهلي البُـرءَ من داءِ دانِـفِ
وكنتُ كذي ساقٍ تهَيّـضَ كسرُها ... إذا انقَـطَـعَتْ عنها سُيورُ السّـقائفِ
فأصـــــبحَ لا يَحتالُ بعدَ قيامِـــهِ ... لُمنهاض كَـســـرٍ من عُـــليّةَ رَادفِ [٤٤]

يحاول الفرزدق في مقدمته ان يصور حالته وما قاساه في حياته فينقل لنا تجربته باسلوب القص فيعكس انفعالا نفسيا وشعوريا بوساطة (خيال ألم به) من مكان آخر فيروي لنا حالته وما عاناه ليس من لوعة الحب والفراق تجاه صاحبة الطيف، انما ما يكنه من احاسيس بصورة المراة، فقد وظفها توظيفا ايجابيا في مقدماته بوصفها وسيلة للتعبير عن همومه، فهو لايرجو البرء من الداء – أي من السجن وهو مكسور لايقوى على الحركة والقيود في رجله. وليس يخفى ان هذه الصورة لاتعبر عن الانكسار المادي انما الانكسار المعنوي – حالة الحزن واليأس –، لكن سرعان مايتحول كلامه وفيه شيء من السرور والراحة فيصف جمال المرأة – جمالية الحياة – فيوشح كلامه بالغزل الرقيق لانه كلام موجه الى ممدوح، وهو لايغفل الاشارة الى معاناته امامه، يقول :

ذكَـرتُـكِ يا أمّ العَـــلاءِ ودُونَنـــا ... مَصَـاريعُ أبوَابِ السّجونِ الصّوَارفِ
قد اعتَرَفَـتْ نفـــسٌ عُليّةُ داؤها ... بطـولِ ضَـنىً منها إذا لم تُساعِفِ
فإنْ يُطلِقِ الرحمَـنُ قيدي فألقَـها ... نُـحَـلّلْ نُذورا بالشّـــفاهِ الرّواشِـــفِ [٤٥]

تمتلئ مقدمته بالحنين والأسى فيقص لنا اطرافا من حديثه وهو صريع في السجن، فـ (صوت الباب عند فتحها واغلاقها) تعكس حالة الامل واليأس في نفس الشاعر (أمل في حياة جديدة ومشرقة – الفتح –) و (يأس من ألم وحزن – الغلق –). الفرزدق يرسم مشاهدا لحالته وما ينتابه من شعور وهو صريع فيبدع في هذا الوصف، ويرسم صورة عن النفس الانسانية المغلوبة عن طريق هذا الطيف — الحياة — فيدعو للخروج من هذا السجن ليلتقي بالحياة مقبلا عليها يقبلها ويعانقها. انعطافه الى الماضي في تصوير موقفه وحالته الحزينة بعيدا عن المراة ظاهرا هو حديث عن النفس، فضلا عن انها انعكاسات شعورية مبطنة تفصح عن حقيقة موقفه حين يمدح ممدوحه ويندد بالولاة وتعسفهم في تلك الحقبة، اذن ابياته تفصح عن الحالة السياسية لذلك المجتمع، فالشاعر خلال تصويره يعمد الى الالفاظ المعبرة فكثير منها لها دلالات وتلميحات جمعت بين المقدمة والغرض، مثل : (ساق ، كسرها، قيدي، السجون، ساقي، القيود، الحبس، سجنوني ،...)، يقول :

دَعوتُ أمينَ اللهِ في الأرضِ دَعوةً ... ليَفرِجَ عن ساقَيّ خيرُ الخلائِفِ
فيا خيرَ أهلِ الأرضِ إنك لو ترَى ... بساقَيّ آثارَ القيُودِ النّواسِفِ
إذاً لَرجَوتُ العفوَ منك ورَحْمَةً ... وعَدلَ إمَامٍ بالرّعِيةِ رَائِفِ [٤٦]

والفرزدق في معرض التنديد بالآخر يعمد الى الفخر اعلاء بمنزلته وعنفوانه، والاشارة الى مكانة قومه امام الممدوح، تعكس الحالة النفسية وما لاقاه من تجني وتعسف يقول :

فإن أكُ مَحبُوسا بِغيرِ جَريرَةٍ ... فقَدْ أخَذوني آمِناً غيرَ خائِفِ
وما سَجنوني غيرَ أني ابنُ غالبٍ ... وأني مِنَ الأثرَين غيرِ الزّعانِفِ [٤٧]

والمثيرات في الحياة كثيرة ومنها المراة وظفها الفرزدق في عنصر الطيف، فقد صوره في مشهد يظهر فيه اثره في نفسه وفي رفاقه [٤٨], إذ لكل مثير مستجيب، فلفظ اسم المرأة يعد مثيرا قويا وفاعلا وفي المقابل هناك استجابة – حث الخطى والاسراع الى الممدوح –، فكلما كان المثير قويا — المرأة — كان دافع الاستجابة اسرع للوصول والفوز برضا الممدوح.

ويتخذ الفرزدق من الطيف مدخلا قصيرا الى غرضه الرئيس، لكنه لا يخلو من ابعاد فلسفية نفسية لها اثرها في شعره، فهو حديث عن النفس في اثناء رحلته الى الممدوح ، يحاول ان يرتد الى الماضي حينا وينصرف الى الحاضر حينا آخر، يقول :

زارَتْ سُكينَةُ أطلاحاً أناخَ بهِم ... شَفاعةُ النّومِ للعينينِ والسّهَرُ
كأنما مُوّتوا بالأمسِ إذ وقَعُوا ... وقَد بدَتْ جُدَدٌ ألوَانُها شُهُرُ
وقد يَهيجُ على الشّوقِ الذي بعثَتْ ... أقرانُهُ لائِحاتُ البَرقِ والدّكَرِ
وسَاقنا من قَساً يزجي ركائِبَنا ... إليك مُنتَجِعُ الحاجاتِ والقَدَرِ [٤٩]

يجعل الفرزدق من طيف صاحبته ضيفا عزيزا خفيف الظل ياتي في اخر الليل ويغادره اول الصباح، فيزداد بهجة وفرحا لتاثيره المباشر في نفسه وفي رفاقه للاسراع وحث الخطى.

المثيرات في الحياة كثيرة ومنها المراة وظفها الفرزدق في عنصر الطيف، فقد صوره في مشهد يظهر فيه اثره في نفسه وفي رفاقه, إذن لكل مثير مستجيب، فلفظ اسم المرأة – سكينة – كانت مثيرا قويا وفاعلا وفي المقابل هناك استجابة – حث الخطى والاسراع الى الممدح –، فكلما كان المثير قويا – المرأة – كان دافع الاستجابة اسرع للوصول والفوز برضا الممدوح.

مقدمة الطلل

وللفرزدق شعر وقف فيه على المنازل وخاطبها ووصف آثارها ، وقد جاء مقدمة لبعض القصائد، في حين خلت كثير من قصائده من تلك المقدمات . وفي شعره الذي وقفنا عليه نراه لم يلتزم بالوقوف على الاطلال كثيرا [٥٠] ، انما حديث قصير يدخل منه الى الغزل أو موضوعه الرئيس، فحديثه في الاطلال مرتبط الى حد ما بالمرأة، بل سبب لذكرها والحنين إليها، وهي ظاهرة فنية تميز بها الفرزدق بوصفها مثيرا تحفز الشاعر لتشخيص مظاهر البيئة العربية، ضمن لوحة فنية يرسمها بخياله ويستوفي بعض عناصرها التي لها وقع خاص في نفس المتلقي – المخاطب – فيحرك مشاعره ويثيره.

وقد راى بعض الباحثين ان للطلل رمزا نفسيا لألم يحس به الشاعر، فالوقوف على الاطلال والتحسر على الذكريات الماضية، والبحث عن آثار المنازل والديار هي رموز لتجربة الألم التي يجد فيها الشاعر راحة ودلالة نفسيتين يطمئن اليها في التعبير عن بعض مشاعره الحبيسة [٥١].

وقد نأىّ الفرزدق عن هذه المقدمة أحياناً، ولم يعنَ بتفاصيل رسومها والوقوف عليها طويلا، " فهو لا يعني بحاضرها او بماضيها، بل يقتصر على تصوير مشاعره نحوها " [٥٢] ؛ لذا نراه يتكئ في مقدماته على الأقدمين فيستعير صورهم وتعابيرهم بمعنى انه " لا يصف اطلال بل يستعيد وصفها ذهنيا " [٥٣]، فيوظفها في خدمة قصيدته من خلال مدلولاتها وتأثيراتها.

وفي مقدمته التي يمدح بها بني شيبان يستعير اطلال اسلافه من الشعراء في مخاطبة الطلل وهي التسليم عليها بعد انقطاع واستنطاقها ومخاطبة الرفاق، ثم البكاء شوقا والوقوف عليها والتعرف اليها، يقول :

أَلِمّا على أطلالِ سُعدَى نُسَلّمِ ... دَوَارِسَ لّما استُنطِقَتْ لم تكلّمِ
وُقوفاً بها صَحْبِي عَلَيّ وإنّما ... عَرَفتُ رُسُومَ الدّارِ بعدَ التّوَهّمِ
يقولونَ لا تَهلكْ أسىً ولقد بَدتْ ... لهم عَبرَاتُ المُستَهَامِ المتَيّمِ
فقلتُ لهم لا تعذلُوني فإنّها ... مَنازِل كانتْ مِنْ نوارَ بَمَعْلَمِ [٥٤]

هذه المقدمة على ظاهرها تبدو صورة مستعارة من اصحاب المعلقات " فقد تناول بعضها من (طرفة) وبعضها من (زهير) وبعضها من (عنترة) " [٥٥]، لكن لو انعمنا النظر في موضوع القصيدة هو مدح لبني شيبان تلك القبيلة المعروفة بانتصاراتها ووقائعها ضد الفرس في زمن مضى. فالاشارة الى اطلال الماضي وتقديسها واعجاب الفرزدق بها هو في الوقت نفسه اعجاب ببطولات الممدوح وقبيلته وانتصاراتها في الماضي، يقول :

أتاني من الأنبَاءِ بعدَ الذي مضَى ... لشَيبَانَ من عادِيّ مَجدٍ مُقدَّمِ
غَداة قَرَوا كِسرَى وَحدّ جُنُودِهِ ... بِبطحَاءِ ذي قارٍ قِرىً لم يُعَتّمِ [٥٦]

والمقدمة الطللية ذو قوة وعاطفة ما زالت تؤثر في نفس القارى إلى جانب إنسانيتها وشموليتها لكل زمان ومكان، فكل شاعر يعني في مقدمته برسم مشاعره العاطفية وحالته النفسية [٥٧] . كما ان اقتفاء آثار القدماء والسير على نهجهم هو اعتزاز بالاصول والتقاليد العربية ، فالفرزدق معتز بشعر الاقدمين ، فهو غالبا يدين بفضل من سبقه وتعلمه الشعر منهم [٥٨] . اذن الربط بين اطلال القدماء واستعارتها وقرنها بفضائل قوم الممدوح وانتصاراتهم في سالف الزمان هي غاية الشاعر واعترافا بفضل الأولين والآخرين، يقول :

سَتأتِيكَ مني كُلَّ عامٍ قَصِيدةٌ ... مُحَبّرةٌ نُوفِيكَهَا كُلَّ مَوْسِمِ
جَزاءً بما أولَيتَني إذ حَبَوتَني ... بِجابيةِ الجَوْلانِ ذاتِ المُخَرَّمِ [٥٩]

وربما يتبادر الى الأذهان السؤال الآتي : ما الدافع الذي دفع الفرزدق الى تقديم الطلل ليتحول الى الفخر فالهجاء ؟

والمرأة عنصر فاعل ومؤثر في الطلل، التي يُرى من خلالها صورة الحياة الماضية الجميلة ، لان الطلل فيه اشارة الى الماضي والحنين اليه، ورمز لحب الوطن (القبيلة). وعلى الرغم من قلة الافتتاحية الطللية في مقدمات شعره عامة، إلا انها اخذت حيزا من شعر الفرزدق، فهي من ناحية اتباع سنن الاقدمين، ومن ناحية اخرى وسيلة يتذكر بها قومه واهلها الضاعنين بها. فالاطلال وثيقة الصلة بالمرأة بوصفها مثيرا عاطفيا للشاعر [٦٠] يوحي إلينا صراحة وضمناً الى ميل نفسه الى الفخر بقومه والتمجيد بهم.

الفرزدق كان حاذقا على ربط الأحداث وتسلسلها وتواصلها مع بعضها، بما يعزز التأويل والتفسير من داخل النص الشعري فالمرأة اسلوب شعري وظفه الفرزدق للفخر فضلا عن انها تفصح عن صوت الشاعر وفكره، إذ تغدو تعبيرا عن الدلالات النفسية للفرزدق، ومقصدا في الفخر احيانا لتحقيق ذات الشاعر التي تنصهر في بودقة الجماعة – القبيلة – ليعلو صوتها على كل صوت آخر، كما انها دافعا ومثيرا ايجابيا الى مقصد آخر – الهجاء – احيانا اخرى، ينقض فيه على خصمه ويسبغ عليه كل عبارات الذل والهوان.

وقد ربط الشعراء الاطلال باسم المحبوبة دلالة على الاقتران المعنوي في اذهانهم، وقد جاء هذا الاقتران بعد ان كانت مقترنة بها اقترانا حسيا مثل الرحيل [٦١] ، يقول:

رَعتْ ناقتي مِنْ أم أعيَنَ رَعيَةً ... يُشَلّ بها وَضعاً الى الحَقَبِ الضَّفْرُ
يقولُونَ والأمثالُ تُضرَبُ للأسَى ... أما لكَ عن شَيءٍ فُجِعتَ به صَبرُ
وما ذرَفتْ عَيناكَ إلا لِدِمْنَةٍ ... بِحُزوَى مَحتْها الرّيحُ بعدكَ والقَطْرُ
أقامَ بها من أمّ أعيَنَ بعدَها ... رَمَادٌ وأحجَارٌ برابيةٍ قَفْرُ
وُقوفاً بها صَحْبي عليّ كأنني ... بها سَلَمٌ في كَفّ صاحِبهِ ثأرُ
فَقُلتُ لَهُم : سِيرُوا لِما أنتُمُ له ... فقد طالَ أنْ زُرْنَا مَنازِلَها الهجرُ
أما نَحنُ رَاؤو أهلِها غَيرَ هذهِ ... يدَ الدّهرِ إلا أنْ يُلِمّ بها سَفْرُ [٦٢]

وظف الفرزدق العنصر الانثوي في شعره محاولا ان يقرن وقفته الطللية بالمرأة، إذ ان وجودها وتذكرها يعني اسباغ الحياة والحركة على الموجودات الساكنة (المكان) بوصفها عنصرا متجددا في القصيدة تسبغ طابع الأمل، فهو يقابل بين عنصري الزمان (الماضي) والمكان (القبيلة) بدلالة المرأة – لتعني التجديد والحياة الى الحاضر – التي تدفع به نحو بعث الأمل من جديد. فمرور الزمن يجعل من الشاعر ان يعيد

الصلة بمن قطعهم، فحين يستدعي المرأة في المقطع الطللي انما يعني حقيقة تواصله مع الحياة واستمرار لها [٦٣].

إن المعني بالطلل الشاعر نفسه، إذ نراه يتكلم بضمير المتكلم (الأنا) والمخاطب ليقيم علاقة بينه وبين المكان ومن سكن فيه ، فهي علاقة انتماء الى المكان اولا، ومن ثم الى الانتماء الأكبر (القبيلة)، أما رمز الرحيل فهو تأكيد ان الوجود البشري المتمثل بالمرأة هو الهاجس النفسي في شعره ودافعا قويا الى مواصلة الحياة، ليعلن في حديثه ان وقت الرحيل حان عن هذه المنازل المهجورة، وان المسافر لابد ان يحل في مكان آخر، لكن الى من ؟ الى ممدوح يقصده المعني في القصيدة يشيد فيها بمواطن القوة والشجاعة والبأس فهم قوم يطلبون ثارهم ويخشاهم كل من دخل اليهم [٦٤].

ان الحديث عن الطل ووصفه، ثم الحديث عن المرأة والتغزل بها سببه العلاقة الوثيقة بين المتلازمين ويكاد يكمل احدهما الآخر حتى تكاد تكون المرأة وقودا لعاطفة الشاعر [٦٥].

الخلاصة

وفي ختام حديثنا نعرض أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وكما ياتي :

١- عبر البحث عن وجهة نظر الباحث في تحليل المقدمات، وربطها بالغرض الرئيس – المديح – بوصفها قصائد هادفة الى منفعة شخصية للشاعر يهدف من ورائها السعي الى ارضاء الممدوح ، واجتماعية يعبر فيها عن خواطره أو مشاعر تعنيه بصفة خاصة .

٢- تنوعت المقدمات عند الفرزدق فمنها الغزلية، والطلليلة ، ووصف الطيف ، والشيب والشباب .

٣- تعددت صور المرأة عند الفرزدق فهي رمز للحياة وللحب، ووسيلة فنية تعبر عن حقيقة شعورية . فالمرأة في الغزل (صورة عن النفس)، وفي الطلل (حنين الى الماضي)، وفي الطيف (تجديد للحياة واستمرار لها)، وفي الشيب والشباب (حسرة وألم).

٤- المرأة عند الفرزدق متخيل شعري، ومثير ايجابي ذي دافع قوي نحو الابداع والتفوق والتميز.

٥- المرأة أمدت الفرزدق بطاقة كبرى في الحديث والتصوير ويسرت له الطريق للوصول الى مبتغاه –المديح– .

٦- وضوح نفسية الشاعر وخواطره التي يحملها في اعماقه في مقدمات قصائده المدحية .

٧- يتخذ الفرزدق من المقدمات حديثا قصيرا – في الاغلب – لكن التصوير الذي يجنح اليه ، هو الذي يمنح الحدث حرارة الحياة وتدفقها .

٨- يصطنع الحكاية البسيطة اسلوبا للتعبير عما هو فيه في طائفة واسعة من مقدماته .

٩- نقل الفرزدق الى المقدمات ألوانا زاهية متوهجة من ألوان الفتوة والمغامرة ، فطبعت شعره بظاهرة فنية هي طابع المغامرة .

هوامش البحث

[١]- ينظر : المراة في الشعر الجاهلي ، الهاشمي : ٩٠

[٢]- ينظر : تاريخ الشعر العربي حتى اواخر القرن الثالث الهجري ، البهبيتي : ١٠٠

[٣]- البناء الفني عند الفرزدق ، علاء الدين المعاضيدي : ٢٢٢

[٤]- ينظر : قصيدة المديح حتى نهاية العصر الاموي ، وهب رومية : ٥٠٧

[٥]- ينظر : حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، الحاتمي ،:١ / ٢١٥

[٦]- مطلع القصيدة ودلالتها النفسية ، عبد الحليم حفني : ٥٩

[٧]- ينظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة : ١ / ٧٦

[٨]- مطلع القصيدة ودلالتها النفسية ، عبد الحليم حفني : ٢٩٣

[٩]- ينظر : مقدمة القصيدة في العصر الاموي ، حسين عطوان : ٣٦

[١٠]- المقدمة الطللية عند النقاد المحدثين .زياد محمود مقدادي : ٨٤

[١١]- ينظر : الفرزدق ، الفحام : ٣٧٦

[١٢]- ديوان الفرزدق : ١ / ٦٨

سويقة : موضع في صحراء الصمان ، الدهنا :رمال في في ديار بني تميم ، الجواء :الوادي المتسع ، المندمل

من الجراح :الذ برئ ظاهره وبقي داخله فاسدا ، التهياض :الانتكاس بعد العودة ، الجيلان :ما اجالته الريح من الحصى .

[١٣]- – ديوان الفرزدق : ٢ / ١٢

المشاعف: النساء اللواتي تشعف القلب،اي تحرقه بحبها،الصرمة: القطعة من الابل، القائف:الذي يقفو اي يتتبع اثار

الغيث.يريد انحن حضربات غير بدويات، المعزب:الي يعزب بابله، العوازف:الجن .

[١٤]- – المصدر نفسه : ٢ / ١٢

الهجان:البيض،الدوائف:من داف المسك خلطه بالمسك ليخثر،المتهانف:الضاحك ضحكا خفيفا،الرواعف:من رعف سال ،الجادي:الزعفران،سفنه : شممنه .

[١٥]– ديوان الفرزدق : ٢ / ١٦

[١٦]– المصدر نفسه : ٢ / ١٤

[١٧]– ينظر : قصيدة المديح ، وهب رومية : ٥٠٨

[١٨]– المصدر نفسه

[١٩]– ينظر : الفرزدق ، الفحام : ٣٥٩

[٢٠]– – ديوان الفرزدق : ٢ / ٢٣

عزف : انصرف ، اعشاش : موضع ، تيلف : تألف .

[٢١]– ينظر : مقدمة القصيدة العربية في العصرر الاموي ، حسين عطوان : ٥٩

[٢٢]– ديوان الفرزدق : ٢ / ٢٣ – ٢٤

مساقط الكلام : ان يتكلم شخص فيصغي اليه اخر ، ابكار الكرم : العنب .

[٢٣]– ينظر : الفرزدق ، الفحام : ٣٧١

[٢٤]– ديوان الفرزدق : ٢ / ٢٤ – ٢٥

صهب اللحى : اراد حرسا روميا ، اقتسمنه : اي اقتسمنه نهشه بينهن ، الخواض: الجريء ، الطنء: الريبة ،

مخشف : سريع مروره ، أيده : قوته ، زمانة : مرض ، تدله : تذهب عقله .

[٢٥]– البناء الشعري عند الفرزدق ، علاء الدين المعاضيدي : ٢٢٦

[٢٦]– – ديوان الفرزدق : ١ / ٣٤٤

وقاع : اسم رسوله ، تجوس : تتخطى ،الخداري :الليل المظلم ،الطنء : الريبة ، تقتر له: أتاه من نواحيه .

[٢٧]– مقدمة القصيدة في العصر الاموي ، حسين عطوان : ٦٥

[٢٨]– ديوان الفرزدق : ١ / ٣٤٥ ، الأوجر : الخائف ، الجري : الرسول .

[٢٩]– ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٣٤٦

[٣٠]– مقدمة القصيدة في العصر الاموي ، حسين عطوان : ٦٢

[٣١]– ينظر : المصدر نفسه : ٩٢

[٣٢]– صورة المرأة في العصر الأموي ، فاطمة تجور : ٤٢

[٣٣]– ديوان الفرزدق : ١ / ٨١

[٣٤]– المصدر نفسه

[٣٥]– ديوان الفرزدق : ١ / ٨٣ ، خافوك : يريد انهم خافو القتل ، وتعجيل يوم الحساب لهم .

[٣٦]– ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٢٣١

[٣٧]– المصدر نفسه : ١ / ٥٠

اراد بغرابها: سوادها،اي ان نفر الشيب الشباب فقد بقيت له لمة لم يطر غرابها ، اي لاتزال سوداء، واللمة:الشعر

المجاوز شحمة الاذن ، سحابها : ايام صفائها .

[٣٨]– مقدمة القصيدة العربية في العصر الاموي ، حسين عطوان : ٨٦

[٣٩]– المصدر نفسه

[٤٠]– المصدر نفسه : ١ / ٢٦١

البرى: حلقة توضع في انف البعير، الصعر : المائلة خدودها من جذب الازمة ، المعصفة: الريح العاصفة ،

المؤوب : السائر جميع النهار .

[٤١]– المصدر نفسه ، التجر : التجار ، الذكية : اراد ما يحمله التجار من عطور .

[٤٢]– ديون الفرزدق : ١ / ٢٨٣

وقع المطايا بنا : نزلنا للتعريس ، الابيض المستطير : الصباح المنتشر .

[٤٣]– المصدر نفسه

النجور : الواحد نجر : الاصل والحسب واللون .

[٤٤]– المصدر نفسه : ٢ / ٧

الدانف : المريض ، تهيض:انكسر بعد الجبور، السقائف : الجبارة اي العيدان او الخرق التي تجبر بها العظام

المكسورة ، الرادف:اي الكسر الذي جاء بعد الكسر الاول .

[٤٥]– ديوان الفرزق : ٢ / ٧ – ٨

الصوارف:التي تصر،تصوت عند فنحها واغلاقها .

[٤٦]– المصدر نفسه : ٢ / ٩

النواسف : التي نسفت الجلد والشعر

[٤٧]– المصدر نفسه : ٢ /١٠

الاثرين : الواحد اثرى العدد الكثير ، الزعانف : كل جماعة ليس لهم اصل واحد .

[٤٨] – ينظر : ديوان الفرزدق : ١ / ١٨٢

[٤٩]– ينظر : ١/ ١٨٢

الاطلاح:البعير المهزول،واراد هنا راكبي الاطلاح، اناخ بهم ابركهم، الجدد:العلامة ، اراد اول تباشير الصباح،

الشهر:الظاهر الواضح، الاقران:الاكفاء، قسا:موضع، يزجي:يسوق، المنتجع:الطالب .

[٥٠]– ينظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر الاموي ، حسين عطوان : ٣٦

[٥١]– ينظر : المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، عناد غزوان : ٢

[٥٢]– قصيدة المديح ، وهب رومية : ٥٣٢

[٥٣]– المصدر نفسه

[٥٤]– ديوان الفرزدق : ٢ / ١٩٤

[٥٥]– قصيدة المديح ، وهب رومية : ٥٣٣

[٥٦]– ديوان الفرزدق: ٢ / ١٩٤

العادي : القديم ، ذو قار : موضع كان فيه انتصار العرب على العجم وكان الفضل في ذلك لابطال بني شيبان

[٥٧]– ينظر : تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، شكري فيصل : ٥٩

[٥٨]– ينظر : ديوان الفرزدق : ٢ / ١٥٩

[٥٩]– المصدر نفسه : ٢ / ١٩٥

[٦٠]– المصدر نفسه : ١ / ١٧٢– ١٧٣

[٦١]– ينظر : الغزل في العصر الجاهلى ، الحوفي : ٣٠

[٦٢]– – ديوان الفرزدق : ١ / ٢٥٢ – ٢٥٣

رعت ناقتي : اراد نظرت ناقتي ، ام اعين :امرأة ، يشل بها : يقلق ويضطرب ، الحقب : الحزام الذي يلي حقو

البعير ، الضفر: حزام الرحل ، الوضع : السير السريع ، عن شيء : اي عن المرأة التي كلفت بها ، سلم : مسلم

[٦٣]- المقدمة الطللية ، زياد محمود مقدادي : ٦٧

[٦٤]- ينظر : ديوان الفرزدق : ١ / ٢٥٤

[٦٥]- ينظر : المطلع التقليدي في القصيدة العربية ، عدنان البلداوي : ٢٠

المصادر

١- اتجاهات الشعر في العصر الاموي ، صلاح الدين الهادي ، ط١ ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٢- البناء الشعري عند الفرزدق ، علاء الدين المعاضيدي (رسالة ماجستير غير منشورة) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٢ .

٣- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث للهجري،محمد نجيب البهبيتي،دار الكتب المصرية، ١٩٥٠

٤- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام من امرئ القيس الى ابن ابي ربيعة ، شكري فيصل ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٦٤ .

٥- حلية المحاضرة في صناعة الشعر،الحاتمي (٣٨٨ هـ)، تحقيق:جعفر الكناني،دار الرشيد،بغداد ، ١٩٧٤ .

٦- ديوان الفرزدق ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ .

٧- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، تحقيق : احمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ .

٨- صورة المرأة في العصر الاموي ، فاطمة تجور، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٩ .

٩- الغزل في العصر الجاهلي ، احمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، القاهرة

١٠- الفرزدق ، شاكر الفحام ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٧ .

١١- قصيدة المديح حتى نهاية العصر الاموي بين الاصول والاحياء والتجديد ، وهب رومية ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨١ .

١٢- المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٠ .

١٣- المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، عناد غزوان ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، العراق ، ١٩٧٤ .

١٤- المطلع التقليدي في القصيدة العربية (دراسة ونقد وتحليل) ، عدنان عبد النبي البلداوي ، مطبعة الشعب ، بغداد ، ١٩٧٤ .

١٥- مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

١٦- المقدمة الطللية عند النقاد المحدثين ، زياد محمود مقدادي ، ط١ ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، امانة عمان الكبرى ، الاردن ، ٢٠١٠ .

١٧- مقدمة القصيدة العربية في العصر الاموي ، حسين عطوان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤.

Women in the introductions poetry Farazdaq Read a poem of praise

Abstract

Farazdaku nique phenomenon of Arabic poetry rarely find his counterpart, enveloped in their own personal iddah , Alhmokh vigor and pride, pride. Grew dear life dignified, well-known family of prestige since the era of pre-Islam. His tribe was first class in his life and his poetry .

The women gained a privileged position when Farazdak was employed by the creations of poetry as a beautiful picture prettify by his poet embody in an interview with an independent and sometimes part of the poem, so it would've read in the introductions to praise, the poem that tried Farazdak be committed in some of them the Spirit Arabians represented in this traditional style, these introductions to the limit - mostly - , their diversity between the Kin, , ruins, and An older ,young people, described the spectrum taken from the women's title and its cause.

Through these introductions, we can identify the underlying emotions in the same Farazdak , observe its manifestations in the picture symbol for women to sing their hopes , passion and put them all what it feels like it and simmered in the chest . The research has been the most important results, including, Find all through the perspective of a researcher in the analysis of introductions, the purpose and linked to the president - praise - as a meaningful poems to the personal benefit of the aims of the poet behind the pursuit to satisfy acclaimed, and social expressing thoughts or feelings mean in particular. Colorful images of women at Farazdak is a symbol of life , love, art and a means for expressing emotional truth. Women in spinning (self image), in Remaining relics (nostalgia to the past), in the spectrum (the renewal of life and its continuation), An older ,young people (heartbreak and pain). And a last resort when women Farazdak imagined poetic, and Dramatic with a strong motivation positive towards creativity and excellence.